الوعد الصامِتْ

زينب محمد

المقدمة

«أنا أقربُ إليكِ من نفسكِ بل أنا نفسكِ التي تندمج معها روحكِ؛ إياكِ أن تنسِيني»

××××

كَانتْ أسيرة وحدتها تسير في درب المجهول يأخذها الحنين تارة، وتارة أخرى يغزوها التمرّد عليه، تترنَّح بين كِلَتا الوجهتين ليس لها وجهة معلومة لتستقبلها، كرحّال تائه في أرضٍ فضاء لا يعرف من أين جاء ولا إلى أين يعود أدراجه.....

تتساءل بين الحين والفينة هل ما أفعله صائبًا أم خطأً؟

هل أرتكب بحقّ نفسي جرمًا؟... ..

أحقًا أُؤذي نفسي؟..

تتحدث كثيرًا وكثيرًا، فلا تجد جوابًا؛ ما من شيء يفسر معاناتها التي قاربت أن تفقد معها نفسها، وأبرز ما يدل على ذلك ملامحها التي باتت تعجز عن تمييزها، عينان ناعستان تحيطهما هالات سوداوية كظل العيون، يجعلانها لا تقل نظيرًا عن امرأة في الثمانين من عمرها، وجه شاحب وشفاه باهتة وعقل مغيّب يعيش في أمسه ولا يعي شيئًا من أحداث حاضره، كلما انفردت

بذاتها لتستعيد نفسها القديمة؛ قفزت صورته في مخيلتها وتوثّقت ذكرياته أكثر، تتضارب بداخلها مشاعر الحب والحنين والشجن والغضب كل يخالط بعضه، مشاعر كثيرة مضطربة تغزوها وتسيطر عليها، أحيانًا تتولّد داخلها رغبة تدعوها للبحث عنه وقتله كما وَأَدَ قلبها حيًا ثمّ تخبت تلك الرغبة سريعًا وتتلاشى؛ لتحلّ محلها أخرى تدعوها لترتمي في أحضانه وتسكن في أعماقه بين حنايا صدره، لا تنفكّ تحدّث نفسها عن عودته تؤمن به كثيرًا، تُحدّث ربّها عنه في صلاتها، وتدعو له؛ أنا أقرب لك من نفسك، بل أنا نفسك التي تندمج مع روحك إيّاك أن تنسيني؛ لازالتْ تعاني من آثار كلماته التي تحدثُ ضجيجًا صاخبًا في أذنيها، تُميتها على قيد الحياة تجعلها باردة متبلّدة كقطعة ثلج كثيفة، يتخطّاها الجميع لا أحد يرغب بها، ترتدي عباءة اللامبالاة وثوب البرود أمام كل من تعرفهم ويخالطونها، ليستْ ساذجة حدّ الفكاهة ولا هي بالفتاة الشكيّة التي تستدر عطف من أمامها، لذا تبتعد عن الجميع لئلّا تُعكّر صفو مزاجهم بكدر حياتها؛ طرقاتٌ خافتة على باب غرفتها أخرجتها من شرودها كانتْ والدتها البائسة تزفُّ إليها خبر عريسٍ جديد ربّما ليس الأوّل لكنّه حتمًا الأخير فعمرها الآن أصبح ثلاثين....

جميع من حولها يُخبرونها أنّ قطار العمر فات منذ سنوات وأنّ فرصتها في تأسيس أسرة تضاءلت كثيرًا؛ لذا قرّرت أخيرًا في نفسها أن تتركْ لعقلها فرصة الاختيار لمرّة واحدة، أخيرًا يحقّ له أن يختار مثلما اختار قلبها.

ــابنتي ماذا أجيب والدكِ بشأن العريس؟ قالتها لها والدتها وهي مُطأطأة الرأس في حزن بالغ فهي تعرف الرد مسبقًا...

« لا أريد أحدًا في حياتي أنا سعيدة هكذا» في كل مرة يكون الرد جاهزًا في قالب من الغضب غير مبرّر لكن تلك المرّة تختلف كثيرًا، لقد طغَت على

قواعد عشقها واستسلمت لقانون الحياة قائلة:

- أبلغيهِ أني أودّ مقابلته يا أمّاه.

لوهلة لم تُصدّق الأم ما سمعته ظلت واقفة تترقب ما سيُقال بعد، كررّتها على مسامعها ثانية حتى استوعبت جيدًا ما سمعته ووعته أذناها، تهلّلت أسارير وجهها وعمّ الفرح ثم دلفتْ سريعًا نحو غرفة الوالد لتخبره بقرار ابنتهما.

بينما بقيت هي بغرفتها بين نزاعين، تُصارع قلبها وعقلها في آن واحد تمطرها المشاعر كقطرات الندى، يتولّد بداخلها شعور جديد يجذبها جذبًا تجاه ذكرياته، يسيطر عليها كمعتدٍ يقذف بأحدهم في بئر غائر ولا يكتفي بذاك بل يلجأ إلى إغراقه، لا تعلم هل هو بئر الحنين أم الاشتياق!! أهو مجرّد شعور تحسه أم صوت الندم يُخبرها أنّها باتَتْ مذنبة بحقّه؛ لتثور على ذلك الصوت بداخلها قائلة:

- ثمّ ماذا يا أنتَ ألا تتركْ لي أدنى فرصة حتى لكي أختلي فيها بنفسي؟! لماذا تعلّقتَ بقلبي إذا كنت ستتركني أعاني وحدي؟ لماذا تركتني وحكمت على قلبي بالموت وأسرت روحي معكَ وجعلتني شريدة في موطني غريبة في دياري؟ لماذا لم تخبرني منذ البداية أنّك لن تبقى معي لن تألف روحي ستغادر وتهديني ذكرى موجعة تُنغّص عليّ ليلي وتصيبني بوابل من الاكتئاب؛ أنتظر.... وكنتُ سأنتظر أكثر وأكثر حدّ المشيب أو الموت... تعلم جيدًا أنّني لم أكن لأمانع ذلك، لكنّك لم تسمح لي حتى بانتظارك لازلتُ أذكر لقاءنا الأخير؛ لازالت كلمات موظّفة استقبال المطار تخترق أُذنيّ.

«النداء الأخير للمسافرين على متن الرحلة الجويّة رقم 375 المتجّهة إلى المملكة العربية السعودية»

- كلماتها ثقبَتْ آذاني وقبضتْ روحي وأغارَتْ على وجداني، كنتُ أقف ذليلة كما لو أنّي ارتكبت جناية وأنتظر عقوبتي ولم تأخذك بي الشفقة لكيْ تَعفو عنّي وتعود أدراجكَ معي، انتظرتك تلفظ كلمة واحدة لكن بلا فائدة فقط «الوداع» تلك الكلمة التي أحدثت طنينًا بأُذني لسنوات.

إنّه السابع من الشهر ذلك اليوم الذي سيحضر فيه صاحب النصيب كمّا يدّعون حاولتُ بكل السُبل أن أتفادى ذلك التاريخ لكني أخفقت وها هي بضع دقائق معدودة وسيُهدم السور الذي وضعته حائلًا بين قلبي وبين كل غازٍ، بضع ثوانٍ قليلة وسيُحطّم قلبي وتَتهدّم جدرانه ويتهاوى ساقطًا عند قدميّ؛ والآن ماذا هل أُخبر أمي أني لا أريد أحدًا في حياتي للمرة المائة؟..... أم أصارح أبي أن قلبي أسيرٌ ببلدٍ بعيد؟.

- هلّا تفتحين الباب يا ابنتي، ألا تسمعين الجرس يبدو أنّه العريس المنتظر!!

وضعت يدها على قلبها هامسة: «أسمعتَ أمي؟ أنا سمعتها لكني لازلت أقف مكاني كلما حاولتُ أن أُقَدّم قدميَّ تباطأتُ وعدتُ أدراجي»....

- سأرى من الطارق.

أسمعتَ والدي يبدو سعيدًا للغاية، همّ لفَتح الباب، بينما أنا حمدتُ ربّي أنّ الطارق لم يكن سوى أحد عمّال خدمة توصيل الورود»...

حمل والدها بوكيه الورد بين يديه وهو يشير إليها قائلًا:

- يبدو أنّ لديه ذوقًا عاليًا أظنّه من سُلالة أصيلة، وتدعو الأم بقولها جعله الله من نصيبك يا ابنتي.

بينما هي مستغرقة في حديث نفسها ــ «أرأيتَ تلك الورود التي أرسلها وددتُ لو كانت منك لأقبّلها، لكن لا علاقة لي بكل ذاك أنا أهيمُ في وادٍ آخر،

عيناي مُعلَّقة على بندول الساعة ذاك العدو اللدود الذي يعدو سريعًا كما لو أنّ هناك من يعدو خلفهُ، أتعجبُ منه لو أنني أنتظر خبرًا سعيدًا لتحوَّل إلى عجوز كهل يتوكَّأ عصاه وربما يدركه الموت قبل بلوغ وجهته»....

قطع والدها خلوتها عندما أشار لها بالجلوس قربهُ ليُلقي عليها بعض الكلمات التي كان مغزاها باختصار شديد «ابنتي لن أحيا لكِ أكثر ممّا حييتُ وأعلم أنني أحسنتُ تربيتكِ، غرستُ فيكِ الفضيلة ومكارم الأخلاق، وحان وقت حصادهما أُحرّركِ من كافّة القيود لتفعلي ما تريدين لكن عليكِ أن تتحمّلي تبعات ما ستفعلين».

حَسمت أمرها بعد تلكَ الكلمات التي ألقاها والدها واستأذنته لثانيتين، دلفتْ فيهما إلى غرفتها تتفحّص دفتر يوميّاتها الذي يحمل ذكرياتها ويُشاركها أسرارها تحسّستْ دفّتيه يمينًا ويسارًا، في الجانب الأيمن قلبًا مشطورًا نصفين كانت قد رسمتهُ؛ بداخل أحد شطريه R (ريهام) وبداخل الشطر الثاني A (أحمد) يتقابل سهميهما وينتهيا عند كلمة «حب» ربّما لم يخبرا بعضهما بها قط لئلا يقعا في منكر، لكنّها نقشتها على دفّة دفترها بكل إخلاص، يقابله في الجانب الآخر وردة باهتة ذبلتْ واصفرت أوراقها وبهتت ألوانها وتطاير عبيرها لكنّها مُهداة من روح ألِفَتْها؛ أغلقتْ الدفتر ثانية وهي تعتزم تلك المرّة أنها ستغلقه للأبد، وخرجتْ على صوت جرس الباب حتمًا تلك المرّة ذلك نصيبي؛ قالتها لنفسها والذعر يُسيطر عليها حتى كادت أن تهوي أرضًا.

استقبله والدها ووالدتها ووقفتْ هي بجانب والدتها وجهها تجاه الأرض وعيناها تنظر إلى موضع قدميها، صافحتهُ عندما مدّ يده ليصافحها فهي لا تصافح رجالًا ألبته، لكن لم يكن ممكنًا أن تحرجهُ وهو في ضيافتهم، سار هو

مع والدها تجاه غرفة الصالون بينما اتجهتا هي ووالدتها تجاه المطبخ لكي تُحضرا المياه الغازية وبعض الحلوى، ثمّ اتجهتا إلى حيث يجلسان لكنّها تلك المرّة تفاجأت بقدمٍ أخرى بجانب قدم العريس لا تعلم متى قدِم صاحبها وكيف لم تسمع رنينَ الجرس!!!!!

تغاضت عن الأمر ولم تفكر كثيرًا فأخيرًا هي لم تنظر حتى إلى وجه ذلك النصيب حينما صافحها لقد استحيت كثيرًا فكيف تجرؤ على النظر إلى ذاك الآخر، ما إن وضعت الأشياء على الطاولة حتّى همّ الرجل بالخروج وخرج معه والداها لتجد نفسها وحيدة داخل حجرة الصالون ترافقها أنفاس دافئة وصاحب القدم الأخرى المجهول الهويّة، أدركتْ حينها أن الضيف الأول لم يكن صاحب النصيب وإلّا لتركوها معه هو؛ فجلستْ على طرف أحد الكراسي تكاد ترتكز عليه ثم خيّم صمت تام، خلَتْ معه الغرفة تمامًا من الأصوات إلّا من صوت أنفاسها المتلاحقة، حتى صدر صوت المجهول موجهًا حديثه إليها « أخبريني عمّا تفعلينه الآن؟ عملك وحياتك و..... و... .و...»كان يتكلّم بسرعة رهيبة لكنّها لم تنسَ صوتًا سمعته يومًا قط؛ رفعتْ بصرها سريعًا تجاهه لتتأكد أنّ حدسها لازال بخير.

أحمد!! قالتها بعيون متفحّصة بينما تنهّد هو وأخرج آهة مكتومة:

- آه... ..أخيرًا قُدّر لي لقاؤكِ، أخيرًا ستنتهي أيّام البؤس وستُنيرين حياتي وتعود شمسي تشرق من جديد، يا آلله كم تعذّبت وكمْ دعوتُ لأجل تلك اللحظة؛ كم ناجيتُ ربي احفظها لي، كم من صلاة شكرٍ أقمتُ، كنتُ أردّد في كل ركعة من ركعاتها أن تكوني نصيبي.

ردّتْ عليه بجفاءٍ شديد لم يعهده رغم اشتياقها له إلّا أنها أخبرته بكل حزم:

- لو كنتُ أعلم أنك العريس المُنتظر لكنتُ رفضتكَ ولا كلّفتك عناء شراء الورود والمجيء في عقر داري.

نظر إليها متعجبًا مستفهمًا:

- لماذا تقولين ذلك؟ هل ترفضينني؟!

لم تستطع كبح مشاعرها أكثر فأجهشت بالبكاء كطفلة صغيرة تشتاق والدها وتعاتبه على طول الغياب وبدأت تسرد عليه معاناتها وتقصُّ عليه تفاهات زميلاتها وزملائها في العمل كلُ يعترض طريقها حتى رئيسها الذي لا ينفك يتحرّش بها، وإن لم تواته الفرصة يؤنبها ويعنفها أمام زملائها وزميلاتها، إحدى جاراتها لم تكن تَجلب لها سوى المطلقين والأرامل كعروض زواج فاخرة، ولم تنسَ جملة إحدى القريبات القاتلة التي ألقتها على مسامعها في حفل زفاف ابنتها عندما قالت:

- كنتُ أودّ أن أقول عُقبى لكِ لكن أظنّ أن القطار فاتكِ منذ زمن ليته يعود وتُدركينه من جديد، حينها تشبثي به جيدًا ولا تُفوّتيه.

قتلتها تلك الكلمات لكنّها قابلتها ببرود شديد وابتسامة مصطنعة وحكمتْ على دموعها أن تبقي أسيرة محجريَهما حتى تعود إلى غرفتها الكئيبة.

أنهتْ حديثها قائلة:

- ماذا سأسرد عليكَ أكثر؟ أأسرد عليك أوجاعي وأكتوي بنار كبريائي وأتعذّب وأنا أجمع بقايا رفاتي وأتذكّر الأيام الخوالي ودموعي لا تنفكّ تنهمر كالشلال؛ لا لن يحدث ذلك كفاكَ ما عرفتَ وكفاني ما أصابني من الويلات.

ثمّ دلفتُ من أمامه سريعًا وتوجّهت نحو والديها القابعين خارج الغرفة لتخبرهما قرارها الذي لا رجعة فيه.

تحدثت بثقة :

- أبي قد اتخذت قرارًا، لا أريد هذا الزواج.

قالتها وهي تتردّد ببصرها بين والدتها وحبيبها وعيناها تقصّان ألف حكاية وحكاية فهمت والدتها مغزى نظراتها؛ وكأنها كانت تخبرها أنّه هو من كانت تنتظره في صمت، نظرات الأم كلها شفقة وحنان بينما نظراتها هي لا تنمّ إلّا عن الاعتذار، تريد أن تصرخ بينما لسانها مقيّد بما يخالف رغباتها، بداخلها أصوات كثيرة تفتك بها وتنهش من ذاكرتها، أحدهم يقول لها اعتذري لتلك المرأة التي تنام الليل وتصحو في الصباح على أمل بائس أن تجدك بجانب أحدهم تهمسين له بعض كلمات الحب ويبادلكِ بكلمات الغزل فتضحكين بدلال، تأتينها كل جمعة مع صغيركِ أو صغيرتكِ تقضيان يومًا في مرح ولهو، تحلم أن تقصّ على خالاتكِ حكايات صغيركِ وما يفعله من مقالب الأطفال الساذجة مثلما كنّ يقصصنَ عليها، تتمنى أن يبيت بأحضانها قطعة منكِ تُذكّرها بكِ في صغرك وتلحّ عليها في رواية القصص وسرد الحكايات...

وبينما كانت تصارع ذلك الصوت كان هناك آخر يقتحم عقلها ويُخبرها أنّها مدينة لوالدها تودّ لو أنها تعتذر منه وتقبّل يداه حتى يصفح عنها أو تموت هي عند أقدامه....

- متى يأتي اليوم الذي أسلّمك فيه إلى فارسكِ وأقف أنا كالمنبهر الذي يتراقص على فلذة كبده التي تُستأصل دون تخدير.

لطالما أخبرها والدها تلك الجملة مرارًا وتكرارًا.

لتبرّر هي لنفسها :

- ليتني أستطيع أن أُلبّي طلبك يا أبي، ليتني أستطيع أن أتقبّله الآن، لكن كما يقولون كل شيء يأتي بعد موعده يفقد لذته ونكهته الخاصة.

حدّثت نفسها كثيرًا حتى شعرت بضغط كبير يقع على ساعدها تلاهُ صفعة على وجنتها من ذاك الكهل الذي نفذ صبره منها ومن قراراتها، فدلفتْ سريعًا من أمامه إلى غرفة الصالون لتكون بمعزلٍ عن غضبه، وذهب الآخر خلفها يتساءل عن تلك الأمانة التي كان قد تركها بحوزتها:

- آسف لما حدث بينكِ وبين والدك، لم أكن أحبذ أن أكون سببًا في خلاف شائك بينكما لكنّي لا أدري لمَ ترفضيني؟ لمَ وأنتِ لازال قلبكِ ينبض لي شجنًا، لازالت عيناكِ لا تعرف الكذب..... لازلتِ بريئة كما أنتِ لم تدَنّسك قذارة المجتمع؛ أخبريني سببً واحدًا يجعلكِ تتمرّدين علىَ قلبكِ وسأحترم قراركِ ولن أعترض طريقكِ يومًا.

ثم استطرد وهو يشير بسبابته تجاه قلبها:

- ألم أعد أقيم هنا؟

لم تشعر بنفسها بعد تلك الكلمات إلّا وهي تُخرج كل ما في جعبتها وتلقيهِ بوجههِ كالمياه النارية التي تلتهم ما تُقذَف عليه.

- تريد سببًا؟ سأُعطيك بدلًا عن السبب ألفًا أنت لا تصلح زوجًا لي، لا يمكن أن أحيا مع رجل يضعني دائمًا خارج نطاق حساباته، لستُ ضمن أولويّاتكَ، لا أُقارن حتى بإحدى أخواتكَ، أذكر كيف كنّ يقطعنَ حديثنا أيام الجامعة ولا يكففنَ عن طلب الأشياء على الهاتف، كنّ يعلمن بأمري ورغم ذلك لم تكن إحداهنّ تطيق صبرًا على احتياجاتها لحين عودتك إلى المنزل، وتتصل الأخرى لتسألكَ إن تركتَ لها نقودًا أم لا؟ كنتُ أحترق بداخلي عندما تمضي النصف ساعة التي تقتطعها من عملك

لتبادلني بعض الأحاديث، ويقمنَ هنّ بتخريبها وكأني ضرّة إحداهُنّ .

قاطعها بصوت أجش قائلًا:

- يحقّ لكِ كل ذلك، يحق لكِ عتابي، لكنهُنّ كنّ وصيّة أبي الوحيدة لم يكن ممكنًا أن ألقي بأخواتي في الشوارع لينهش لحمهنّ كلاب السكك وأعيش أنا أندم ما بقي لي من حياتي؛ لقد علمتهُنّ وزوجتهنّ وأتممتُ واجب الأبُوّة، انظري إلى ذلك الشاب الذي يجلس مع والديكِ بالخارج هذا الطبيب مصطفي أخي الأصغر لقد كان التحرّي الخاص بي كان عيني الثانية هنا يخبرني دائمًا بتحركاتكِ ويطلعني بأنبائك، صدّقيني لم تكن غربتي هروبًا منكِ ولم أضيّعها سدى ولا هباءً، كنت أتمم واجباتي ولم أضعكِ خارج حساباتي، كنتِ ضمن أولويّاتي، لكِ كل الحق لكي تعيشي مثل الأميرات تُرصّعين بالماس وتُحيطكِ الخادمات عن اليمين وعن الشمال.....

ثمّ قبض على معصمها الأيمن قائلًا:

- والآن ماذا؟ ألم تحِن تلك اللحظة التي أُزين فيها الوسطى وأجعلك مَلِكتي؟.

ركع على ركبتيهِ ودنا منها هامسًا بصوت حنون:

- هلا تكوني زوجتي؟ هل تقبليني زوجًا لكِ؟

تراجعت إلى الخلف قليلًا وعيناها تمطر دمعًا، بينما لازال هو راكعًا على ركبتيه ينتظر جوابها حتى أجابته بصوت مهموس متحشرج يكاد لا يخرج قائلة:

- بشرط ألّا تهجرني ثانية.

فهزّ رأسه بإيجاب قائلًا:

- وأنا قبلتُ.

تمت بحمد الله